**المحاضرة 6 : الوظيفة الاجتماعية للأدب :**

لقد حاول ياوس في بداية طرحه لفكرة الوظيفة الاجتماعية للأدب أن ينتقد نظرية الانعكاس التي رادها جورج لوكاتش Lukacs ، و التي قدمّت مفهومها للعمل الأدبي على أنّه مرآة عاكسة لوقائع المجتمع و أحداثه ، و أبقت بذلك هذا العمل داخل حلقة مغلقة لجمالية الإنتاج و التمثّّل الأدبي ، حيث لا يمكن الحديث عن الوظيفة الاجتماعية المنوطة بهذا العمل ، كما لا يمكن الحديث عن تجربة القارئ الفاعلة في تحوير جملة من القيم و الأعراف و التقاليد السائدة في المجتمع ؛ إنّنا إزاء فلسفة للإنتاج و الخلق التماثلي الذي لا مجال معه للحديث عن فلسفة إعادة الإنتاج و نقد المسلمات الاجتماعية و الثقافية بغية تحويرها و تعديلها .

إنّ جمالية التلقي التي أرسى قواعدها ياوس ، تحاول أن تجد إجابة لمسألة الوظيفة الاجتماعية للأدب ( الخلق الاجتماعي ) ، وهي تتجاوز بذلك كفاءة الجمالية التقليدية التي قالت بمفهوم الانعكاس و المحاكاة ، و ياوس يطرح في ظلّ هذه الوجهة سؤالا : كيف يمكننا ، إذا سلمنا بنظرية الانعكاس ، أن نعيّن حقّا أفق التجربة للممارسة المعاشة ؟ و كيف ستكون وضعية هذا الأفق بالنسبة إلى أفق التجربة الجمالية للقارئ ؟ [[1]](#footnote-1)( 141 ) . و لعلّ الإجابة يعرضها صاحب السؤال ممّا أفاد منه من نظرية كارل بوبر Popper في فلسفة المعرفة و العلم ، حين ناقش هذا الأخير أفكاره حول الملاحظة و الفرضية في تطوّر التجربة العلمية ، و كيف أنّ هذا التطوّر مقرون بمفهوم أفق التوقع ، كما أنّ تجربة الحياة اليومية ، بالإضافة إلى التجربة العلمية ، منوطة بإحبـاط التوقّع La déception de l'attente ، و إنّنا نكون في علاقة مع واقعنا إذا ما حصل خطأ في فروضنا و توقعـاتنا : (( إنّنا بمعـاينة فرضياتنا التي كـانت خاطئة يمكننا أن ندخل في اتّصـال مع الواقع )) [[2]](#footnote-2)( 142 ) . إنّ هذا النمط من التحليل و التفسير عند بوبر لم يقدّم توضيحا كاملا عن كيفية تكوّن النظرية العلمية ، و لكنّه يسمح بصورة ما توضيح الوظيفة المتميّزة للأدب داخل الحياة الاجتماعية ، ذلك أنّ تجربة القراءة تحرّر القارئ من إلزامية التوافق الاجتماعي ، و من الأحكام المسبقة ، و من أعباء حياته الواقعية ، و تدفعه إلى تجديد نظرته إلى الأشياء عبر أفق التوقّع الأدبـي الذي له ميزة أنّه لا يستند علـى ما مرّ من تجارب قرائية فقط ، في إعادة تحوير و تعديل النظرة إلى العالم ، و لكنّه يمتلك القدرة على السبق ، أي سبق الإمكانات التي لم تتحقّق بعدُ و لم تدخل مجال الواقع [[3]](#footnote-3)( 143 ) .

لا يمكننا إذن ، عزل عالم العمل الأدبي الداخلي عن العالم الخارجي للحياة الاجتماعية و الحياة الواقعية ، و أنّ العمل الأدبي لم ينشأ من فراغ و لا في صحراء من السياقات و الدلالات الاجتماعية و الثقافية المعقّدة و المتنوّعة ، كما أنّنا ، بالمقابل ، لا نتلقى هذا العمل ضمن خبرة قرائية محضة ، بل تتضمن هذه الخبرة أفقنا الاجتماعي و نظرتنا إلى الأشياء التي يمكن أن يعدّلها أو يحوّرها هذا العمل الجديد ، و هنا بالذات ، تتكوّن نقطة التقاء الأفقين : الأفق الأدبي و الأفق الاجتماعي : (( إنّنا نتلقى العمل الأدبي الجديد ليس فقط بأحكام الخلفية التي نمتلكها عن الأشكال الفنّية الأخرى ، و لكن بخلفية تجربة الحياة الواقعية )) [[4]](#footnote-4)( 144 ) ، لأنّ الأدب في جوهره يمتلك القدرة على تخطّي المنظور الفنّي و البلاغي الخالص ، وصولا إلى الجهاز السياقي الذي يحوزه القارئ أثناء لقائه مع النصّ ، و بالمقابل ، فإنّ القارئ بدوره له كفـاءته في النظر إلى العالم و إلى حياته الواقعية من خلال العمل الذي يتلقاه و يحاوره .

إنّ الأدب في قدرته الإبداعية ، يمكنه أن يعيد توجيه تجاربنا ، و لكن ليس فقط عن طريق أشكاله الجديدة التي تكسر آلية المنظور الواقعي ، و بالتالي يُنظر إلى الشكل الجديد في علاقته مع الأشكال الفنّية الأخرى ، بل إنّ تجربة القارئ يمكنها أن تتلقى العمل من خلفية تجربته الواقعية و حياته اليومية ، دون أم يعوّل بصفة كبرى على التباين بين الشكل الجديد و الشكل القديم الذي فقد مبررات وجوده الفنّية .

إنّنا بحاجة ، وفق منظور ياوس ، إلى أن نميّز بين أفق التوقّع الأدبي المتَضَمَن من طرف العمل الجديد ، و أفق التوقّع الاجتماعي Social : (( يقترح ياوس إقامة التمييز بين نمطين من أفق التوقّع : أفـق التوقّع الأدبـي أو ( intra-littéraire ) ... و أفق التوقّع الاجتماعي أو ( extra-littéraire ) ...)) [[5]](#footnote-5)( 145 ) ، لذلك يجب أن يأخذ تحليل التجربة الجمالية للقارئ أو مجموعة من القراء ، في الحاضر أو في الماضي ، بعين الاعتبار العاملين المُكوّنَين لتحيين المعنى في العمل الأدبي ، و هما : الأثر الذي ينتجه العمل ، و التلقي الذي يجريه القارئ ، و بالتالي كشف نوع العلاقة بينهما في ظلّ أفقيهما المندمجين . إنّ إوالية الاشتغال بين النصّ و القارئ تقوم على خاصية الفهم Compréhension ( فهم القارئ للعمل ) ، فالعمل يحاول دائما أن يوفّر لقارئه المناخ الأدبي و الاقتراحات التي يمكن أن توجّه عملية الفهم لديه ، حتّى يصل في النهاية إلى تشكيل أو إعادة تشكيل الأفق الأدبي Horizon littéraire الخاص بالعمل ؛ لكنّ هذه الاستثارة التي يقوم بها العمل ليست قطبا متفرّدا في المعادلة ، حيث يمكن أن نسلّم فقط بخاصية إعادة إنتاج المعنى ، بل إنّ القطب الثاني للمعادلة ، يفتح إمكانية تفعيل استنطاق النصّ أو العمل من طرف القارئ أيضا ، حيث يمكن أن نسلّم أيضا بخاصية إنتاج المعنى ، فالقارئ يستنطق النصّ في حدود استحضاره لفهمه المسبق Précompréhension [[6]](#footnote-6)(\*) للعالم و لحياته الواقعية ، لكن في إطار المرجعيات الأدبية التي يعرضها النصّ نفسه [[7]](#footnote-7)( 146 ) .

1. ( 141 ) - IBID ; p 431. [↑](#footnote-ref-1)
2. ( 142 ) - Jauss ; Pour une ésthétique de la réception , p 74 . [↑](#footnote-ref-2)
3. ( 143 ) - ينظر : IBID ; p 75 . [↑](#footnote-ref-3)
4. ( 144 ) - IBID ; P 76 . [↑](#footnote-ref-4)
5. ( 145 ) - Maria Olivier ; Horizon d' attente / Erwartungshorizont , ( Mode article ) Dans ; Dictionnaire International Des Termes Litteraires , 2004 . [↑](#footnote-ref-5)
6. (\*) - يمكن أن نشير إلى أنّ ياوس اقتبس مفهوم ( الفهم المسبق ) من أراء هيدجر و غادمير ، في إطار ما ناقشاه حول العلاقة التي تربط الوعي بالموضوع ، و كيف أنّ الوعي ( الذات ) يتجه إلى موضوعه و هو يحمل معه جملة من التصوّرات و المفاهيم و الأحكام . لقد قدّم هيدجر هذا المفهوم أثناء طرحه لفكرة ( الفهم الزائف ) و كيف أنّه يتميّز عن الفهم الحقيقي . أمّا غادمير فقد ناقش فكرة الفهم المسبق ضمن طرحه لفكرة : الترسيمة القبلية أو المخطّط ، التي يحدّدها الوعي و هو يتجه نحو الموضوع في محاولة للوصول إلى المعنى و تأويله . [↑](#footnote-ref-6)
7. ( 146 ) - ينظر : Jauss ; Pour une ésthétique de la réception , p 259 . [↑](#footnote-ref-7)